بعض الآباء الكهنة والخُدَّام والخادمات
من إيبارشيَّة سمالوط
باستراحة دير الأنبا بولا بالبحر الأحمر
يوم الاثنين ٢٤ ديسمبر سنة ٢٠١٨م

مُسمَّيات سرِّ الشُّكر

أكلِّمكم في هذه المحاضرة بنعمة ربِّنا، عن المسمَّيات المختلفة لسرِّ الشُّكر، الذي هو القُدَّاس الإلهـــي، كتابيـــاً وآبائيـــاً وليتورجيًّا، سواء في الشَّرق أو في الغرب المسيحيِّين. والغرض من هذه المحاضرة هو أن نعرف أنَّ ''القُدَّاس'' وهو الاسم الذي نعرفه اليَوم، ليس هو الاسم التَّقليدي القبطي، أي ليس هو الاسم الذي عرفته الكنيسة القبطيَّة لسرِّ الشُّكر خلال الألف سنة الأولى للميلاد على الأقل.

وفيما يلي حصر بهذه المسمَّيات:

- **"كسْرُ الخُبز"**

هو الاسم الأقدم لهذا السِّر المقدَّس، وقد ورد ذكره هكذا في إنجيل معلِّمنا لوقا البشير (لوقا ٢٤:٣٥) وأيضـــاً في ســـفر أعمال الرُّسُل (أعمال ٢:٤٦) عندما كان المؤمنون يجتمعون معاً في البيوت لكسر الخُبز والصَّلاة بسرور وابتهاج وبساطة قلب.

والخُبز الحي، هي أحد أسماء السيِّد الرَّب يسوع. فقد قال السيِّد المسيح لليهود: أنا هو الخُبز الحي الذي نزل من السَّماء ... والخُبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم'. فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين: وقالوا: 'أليس هذا هو يسوع بن يوسف، الذي نحن عارفون بأبيه وأمِّه؟ فكيف يقول هذا إني نزلت من السَّماء'؟ وكيف يقـــدر هـــذا أن يعطينا جسده لنأكل؟» فكرَّر يسوع قوله السَّابق بشرح أوفر وقال: «'الحق الحق أقول لكم، إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم ... لأنَّ جسدي مأكلٌ حق، ودمي مشربٌ حق. من يأكل جسدي ويشـــرب دمـــي، يثبت فيَّ وأنا فيه ... فقال كثيرون من تلاميذه إذ سمعوا، إنَّ هذا الكلام صعب. من يقدر أن يسمعه؟ ومن هذا الوقت، رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء، و لم يعودوا يمشون معه. فقال يسوع للاثني عشر: 'ألعلَّكم أنتم أيضاً تريـــدون أن تمضـــوا؟' فأجابه سمعان بطرس: 'يا ربُّ إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبديَّة عندك'» (يوحنَّا إصحاح ٦).

هذا القول المذهل، سمعه التَّلاميذ غير مرَّة. وبرغم أنهم لم يستوعبوا قول الرَّب، و لم يعرفوا كيف يمكن أن يصير التَّطبيق، ساروا وراءه بالإيمان. ولمَّا كانت السَّاعة، وفيما هم متَّكئون يأكلون الفصح، وبدون مقدِّمات وشرح هذه المـــرَّة، «أخـــذ يسوع الخُبز وبارك وكسر وأعطى التَّلاميذ، وقال: 'خذوا كُلوا هذا هو جسدي'. وأخذ الكأس وشكر، وأعطاهم قـــائلاً: 'اشربوا منها كلُّكم، لأنَّ هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يُسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا' ... ثم ســـبَّحوا وخرجوا إلى جبل الزَّيتون» (متى ٢٦-٣٠).

وهكذا تأسَّس العهدُ الجديدُ بدم في كأس، قبل أن يُرفع الابن على الصَّليب، لا ليلغي فعل الدَّم المهرق على الصَّليب، بل ليربط فعل سرِّ الإفخارستيَّا الذي أكمله بنفسه ككاهن، بفعل سرِّ الصَّليب الذي أتمَّه بإرادته ومسرَّة أبيه. لأنه لا يمكـــن أن يخضع سرُّ الحياة الأبديَّة لوطأة الزَّمن. فصار الخُبز في يده جسدَه المكسور من أجل الكثيرين، قبل أن يدقُّوا المسامير في جسده على الصَّليب. والخمر في الكأس، تحوَّل سرياً إلى دمه الكريم، قبل أن تنفُذ الحربة في جنبه على الصَّليب، ليسيل منه دمٌ ومـــاءٌ غفراناً لكلِّ العالم. ومن ذا الذي يستطيع أن يسبر بعقله سرَّ الحياة الأبديَّة؟ وإلاَّ ما كان السِّرُّ سراً.

وهنا لا يمكننا أن نفصل بين خُبز الإفخارستيَّا على المذبح، وجسد المسيح المكسور على الصَّليب. ولا نستطيع أن نفرِّق بين دم كأس العهد الجديد، ودم الجنب المطعون على الصَّليب، لأنَّ المسيح له المجد، قد أكمل على المستوى السِّري، ما كان سيتحقَّق على المستوي العملي، حتى تصير ذبيحة المسيح ذبيحة واحدة، وفعلها واحد، وفي ذات الوقت، لا يحدُّها الزَّمان أو يحصرها المكان.

وعن هذا الخُبز يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م):

[يا إخوتي، إنَّ هذا الخُبز لا يكون ههنا فقط طعاماً للأبرار، فليس القدِّيسون على الأرض فقط يتذوَّقون هذا الخُبز وهذا الدَّم. إننا سنتناولهما أيضاً في السَّماء، حيث يكون الرَّب نفسه هو طعام الأرواح العُليا والملائكة. فهو الفرح الحقيقي لجميع الأرواح السَّمائيَّة ... فمنذ الآن، قد أعطانا الرَّب «خُبز الملائكة» (مزمور ٧٨:٢٥)].

وقد وعد الذين يصبرون معه في تجاربه قائلاً: «أنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً، لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي ...» (لوقا ٢٢:٢٩، ٣٠). فيا لها من وليمة عظيمة يا إخوتي، وما أعظم توافق الذين يأكلون من المائدة السَّماويَّة. وما أعظم تهليلهم، لأنهم يتلذَّذون ليس بالطَّعام البائد الذي يندفع إلى الخارج، بل بالطَّعام الذي يمنح الحياة الأبديَّة. فمن يُحسب أهلاً لهذا المحفل؟ ومن يسعد بأن يُدعى ويُحسب مستحقاً لهذا العيد الإلهي؟ بالحق «طوبى لمن يأكل خُبزاً في ملكوت الله» (لوقا ١٤:١٥)][1].

فـ ''الخُبز والخمر قبل أن يُرفعا على المذبح هما خُبز وخمر، وإذا ارتفعا على المذبح لا يصيران بعدُ خُبزاً وخمراً، بل جسداً محيياً لله، ودماً. والذين ينالون منهما لا يموتون بل يحيون إلى الأبد''[2]. وفي الطَّقس القبطي، وفي أثناء التَّناول من الأسرار المقدسة يُرتِّل المتناولون لحن ''خُبز الحياة الذي نزل من السَّماء وهب الحياة للعالم ...''.

يقول القدِّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م):

[كما أنَّ الخُبز الأرضي ببركة الله يكف عن أن يكون خُبزاً بسيطاً، لكنَّه يصير إفخارستيَّا مؤلَّفة من خُبز أرضي وسماوي، هكذا أجسادنا أيضاً بعد أن تشترك بالإفخارستيَّا الإلهيَّة، ليست بعدها فاسدة، بل لها رجاء القيامة] (ضد الهرطقات ٤:٣٤).

- **''العشاء الرَّباني''** δίπνον – Lord's Supper

وُصف كسْرُ الخُبز أيضاً في كتاب العهد الجديد بأنه ''العشاء''[3]، أي: ''عشاء الرَّب – مائدة الرَّب – كأس الرَّب – كأس البَرَكَة''[4].

وتذكر الأناجيل الثَّلاثة الأولى، أنَّ ''العشاء'' حدث عقب وليمة الفصح. بينما يذكر إنجيل القدِّيس يوحنَّا، أنَّ اليهود لم يحتفلوا بالفصح إلاَّ بعد موت المسيح ودفنه. ممَّا يعني أنَّ السيِّد المسيح له المجد قد عمل الفصح قبل موعده بيوم كامل، حتى يكون يوم الصَّلب هو يوم الفصح نفسه، ليُبطل ذبيحة الفصح بذبيحته الواحدة التي عبرت بنا من الموت إلى الحياة الدَّائمة.

وأقدم تسجيل لعشاء الرَّب، هو ما ذكره الرَّسول بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس في سنة ٥٥ ميلاديَّة (١كورنثوس ١١:٢٠). وقد ورد الحديث التَّفصيلي عن عشاء الرَّب هذا، في الأناجيل المقدَّسة[5].

١- الرِّسالة الفصحيَّة ٩:٨
٢- القانون السَّادس من قوانين البابا أثناسيوس الثَّاني بطريرك الإسكندريَّة.
٣- انظر: لوقا ٢٢:٢٠ ؛ يوحنَّا ١٣:٢ ؛ ١٣:٤ ؛ ٢١:٢٠
٤- ١كورنثوس ١١:٢٠ ، ١٠:٢١ ، ١٠:١٦
٥- متى (ص ٢٦) ؛ مرقس (ص ١٤) ؛ ولوقا (ص ٢٢).

كما نقرأ أيضاً عن مصطلح ''**العشاء الأخير**''[٦]، في القانون (٤١) من قوانين مجمع قرطاجنَّة السَّادس عشر سنة ٤١٩م، والمعروفة قوانينه باسم ''مجموعة قوانين الكنيسة الإفريقيَّة''، وهو ما أشار إليه مرَّة أُخرى مجمع ترولو سنة ٦٩٢م في القانون (٢٩) من قوانينه.

لقد تأسَّس العهد الجديد في ليلة العشاء الأخير، وهي اللَّيلة التي افترق عندها الزَّمن إلى عهدَين، واحدٌ قديمٌ عبر وفات، وآخر جديد دائم لا يزول أبداً.

وكانت عادة الكنيسة في القديم، هي إقامة عشاء الرَّب بعد وليمة الأغابي، أي وليمة المحبَّة، وسُرعان ما انتقلت وليمة الأغابي لتكون بعد عشاء الرَّب وليس قبله، وذلك منذ زمن الرَّسول بولس نفسه.

فالعشاء الرَّباني الذي كانت تقيمه الكنيسة الأولى، ولا زال يقام كلَّ يوم، هو **تذكارٌ** للعشاء الأخير الذي أقيم مرَّة بين المسيح وتلاميذه. وهو هو الذي يُقام كلَّ مرَّة بين المسيح وشعب كلِّ كنيسة بمشاركة الملائكة والرُّسُل والقدِّيسين، لأنَّ الذي يقيمه هو المسيح نفسه الواحد، الذي هو أمساً واليَوم وإلى الأبد. ذلك لأنَّ التَّذكار أو الذِّكرى الإفخارستيَّة ἀνάμνησις (أنامنيسيس)، تعني: ''استحضار حدث ما أمام الله، كان قد وقع في الماضي، ولكن ما زال فعله وأثره ممتداً في الزَّمن الحاضر''، وهذا هو معنى قول الرَّب: «هذا اصنعوه لذكري».

إنَّ كلَّ ذكر يختص بالله، هو بالضَّرورة اشتراك في حضوره. لأنَّ الله حاضرٌ في كلِّ زمان ومكان. فعندما نذكر أمراً زمنياً، تكون الذِّكرى له، هي مجرَّد استرجاع لأحداث تختص به، طواها الزَّمن، ولم يبق غير ذكراها. لأنَّ الزَّمن قادرٌ أن يطوي فيه كلَّ ما هو زمني، لأنه خاضع له. أمَّا ذكر الإلهيَّات، أو الأمور المختصَّة بالله، فهو شيءٌ يختلف تماماً. لأنَّ الله وما يخصّه من أفعال وصفات، لا يخضع للزَّمن، ولا يمكن أن يحتويه الزَّمان.

فحين نذكر الرَّب في صلاتنا، فإنه يحضر بيننا كوعده. فبالأحرى إن ذكرناه في الإفخارستيَّا، وصنعنا تذكاره حسب وصيَّته لنا: ''اصنعوا هذا لذكري''، فهو إذاً حاضر بالضَّرورة معنا، يُقدِّس ويُكمِّل القرابين. لأنَّ حضور الابن، يعنى بالضَّرورة حضور الثَّالوث، تماماً كما فعل الرَّب في ليلة عشائه الأخير مع تلاميذه.

فالرَّب يريد بجسده ودمه الأقدسَين، الموضوعَين على المذبح، أن يحقِّق بيننا حضوره السِّري الدَّائم في كنيسته، عوض حضوره المنظور بين تلاميذه في العُليَّة، قبل آلامه وصلبه. حتى يكون لنا بأكلنا من جسده، وشُربنا من دمه المقدَّس، وجودٌ دائمٌ في حضرته، وعبورٌ به إلى الآب، لأنه هو فصحُنا. ومن أجل هذا، اشتهى المسيح – وهو يحملنا فيه – أن يأكل هذا الفصح الحقيقي مع تلاميذه، قبل أن يتألَّم، حتى لا يعبر وحده، ولكن يعبر كلُّ إنسان معه، إلى الآب.

فهذه هي الذِّكرى، ذكرى حضور المسيح بيننا، وعبورنا به ومعه، بجسده ودمه، بآلامه وموته وقيامته، إلى الآب.

إننا في الإفخارستيَّا، نصنع ''لا موت الرَّب'' الذي ماته على الصَّليب مرَّة واحدة، ولكن ''ذكر موته'' بحسب منطوق اللِّيتورجيَّا: ''ففيما نحن نصنع ذكر آلامه المقدَّسة ...''. ولأنَّ فعل موت الرَّب كبقيَّة أفعاله الخلاصيَّة الأُخرى (القيامة والصُّعود ... إلخ)، هو فعلٌ واحدٌ ممتد أبداً عبر كلِّ زمان، ولا يحويه الزَّمن. فدمُ المسيح لازال يطهِّر كلَّ خطاة الأرض حتى اليَوم، وسوف يُطهِّر أيضاً إلى التَّمام، كلَّ الملتجئين إليه بالإيمان. إذاً، فتذكار موت الرَّب وقيامته، هو قبولٌ واشتراكٌ في موته وقيامته، بالأسرار التي أودعها الرَّبُّ كنيسته.

إذاً ذكرى الصَّليب في القُدَّاس الإلهي، هي ''ذكرى عينيَّة''، وليست مجرَّد ''ذكرى كلاميَّة أو رمزيَّة أو معنويَّة''. أي

٦– لا ننسى هنا لوحة العشاء الأخير التي رسمها الفنان الإيطالي الشَّهير ليوناردو دافنتشي على أحد جدران قاعة طعام بدير سانتا ماريا في مدينة ميلانو، حوالي سنة ١٤٩٥م.

أنها ذكرى بعين الشَّيء، ولنفس الشَّيء. ففي القُدَّاس الإلهي، تكون ذبيحة الصَّليب نفسها حاضرة. وهذا هو معنى أنَّ القُدَّاس الإلهي، هو ذكرى موت المسيح وقيامته.

- **"الإفخارستيَّا"** Euxharist – ἡ εὐχαριστία

كلمة "إفخارستيَّا" تعني "الشُّكر"، لأنَّ الفعل الأساسي الذي قدَّمه المسيح للآب في يوم تأسيسه لهذا السِّر ليلة خميس العهد هو الشُّكر[٧]. وأوَّل ذكر لهذا الاسم "إفخارستيَّا"، للإشارة إلى سرِّ التَّناول، جاء في الدِّيداخي أي تعليم الرُّسُل: "فيما يختص بالإفخارستيَّا، اشكروا هكذا ... لا يأكل أحد ولا يشرب من إفخارستيَّتكم غير المعتمدين باسم الرَّب، لأنَّ الرَّب قد قال بخصوص هذا: لا تعطوا القُدس للكلاب" (١:٩، ٥). ويُعدُّ القدِّيس إغناطيوس الأنطاكي الشَّهيد (٣٥-١٠٧م) هو أوَّل واحد في آباء الكنيسة أشار إلى عشاء الرَّب بكلمة "**إفخارستيَّا**"، موضحاً أنَّ الإفخارستيَّا هي المعروفة بـ "كسْر الخُبز". حيث استخدم لفظة "إفخارستيَّا" أربع مرَّات في رسائله[٨]، وفي كلِّ مرَّة، يتغيَّر مدلول الكلمة حسب سياق النَّص. كما ورد هذا المصطلح عند القدِّيس يوستينوس الشَّهيد[٩] أيضاً.

وسُمي هذا السِّر المقدَّس باسم "الشُّكر" لأنه هو أحد المعاني الأساسيَّة التي تدور حولها صلوات هذا السِّر المقدَّس، أي شكر الآب على الخليقة، وشكر الآب على الخلاص الذي أكمله لنا بابنه يسوع المسيح، إلى جانب تمجيد الثَّالوث القدُّوس الآب والابن والرُّوح القُدُس.

فحين يبدأ الكاهن صلاته بقوله: "مجداً وإكراماً إكراماً ومجداً للثَّالوث القدُّوس، الآب والابن والرُّوح القُدُس ..."، يردِّد الشمَّاس مردَّه الخاص بتقديس أقانيم الثَّالوث قائلا: "واحد هو الآب القدُّوس، واحد هو الابن القدُّوس، واحد هو الرُّوح القُدُس ... آمين هلليلويا". فيجيبه الشَّعب قائلين: "المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس ... آمين هلليلويا". هذه السِّيمفونيَّة البديعة بين الكاهن والشمَّاس والشَّعب بتسبحة الكنيسة في تمجيد أقانيم الثَّالوث القدُّوس، والاعتراف بوحدة أقانيمه، هي المؤهِّل الذي نبدأ به صلوات القُدَّاس الإلهي. وليست هذه هي الحالة الفريدة في الكنيسة القبطيَّة، بل إنَّ كلَّ صلواتنا في كافة المناسبات الكنسيَّة، تبدأ بتمجيد الثَّالوث القدُّوس، الآب والابن والرُّوح القُدُس.

فهذا السِّر المقدَّس لا يخرج عن هذين المعنيين، الشُّكر والتَّمجيد. وكلُّ ما هو غير ذلك، هي إضافات لحقت به عبر القرون، فغيَّبت المعنى الأساسي له أي أنه "إفخارستيَّا".

ويؤكد الشَّهيد إغناطيوس الأنطاكي، على حتميَّة "الإفخارستيَّا الواحدة"، أي التي لا تُكرَّر في يوم تقديمها، سواء بالنِّسبة لمقدِّمها وهو الأُسقُف، أو من ينيبه عنه من الكهنة المساعدين له في الخدمة، أو بالنِّسبة للمتناولين منها. وذلك إشارة إلى وحدة الجسد أي الخبزة الواحدة والكأس الواحدة، والمسيح الواحد الذي يمثِّله الأُسقُف أو من ينيبه، والمذبح الواحد، رمز موت المسيح الذي ماته مرَّة واحدة.

وفي ذلك يقول القدِّيس إغناطيوس الأنطاكي (٣٥-١٠٧م) الشَّهيد:

> [... احرصوا ألاَّ يكون لكم سوى إفخارستيَّا واحدة، لأنه يوجد جسدٌ واحدٌ لربِّنا يسوع المسيح، وكأسٌ واحدة للاتحاد به، ومذبحٌ واحد][١٠].

وهو نفس ما يشرحه كتاب "الدِّسقوليَّة" أي تعاليم الرُّسُل، وهو من مدوَّنات القرن الرَّابع الميلادي: فيقول: "بما أنكم

٧- انظر: ١كورنثوس ١١:٢٤ ؛ متى ٢٦:٢

8- *Philad.*, 4 c.
9- *Apol.* 1. 66.
10- *philad.* 4

أعضاءُ المسيح، لا تفتحوا باباً للانشقاق عن الكنيسة بعدم اجتماعكم معاً، فيما أنَّ لكم المسيح رأساً، وهو بحسب وعده حاضرٌ بينكم، ومشاركٌ لكم. لا تهملوا أنتم المخلِّص، ولا تحرموه أعضاءه، ولا تمزِّقوا أو تبعثروا جسده، ولا تفضِّلوا اهتمامات حياتكم الزَّمنيَّة على كلمة الله. ولكن في يوم الرَّب اتركوا كلَّ شيء واهرعوا معاً إلى الكنيسة'' (٢:٥٩:٢-٣).

لقد كان الاجتماع الواحد في المكان الواحد، أمراً بالغ الأهميَّة، لأنه دليلٌ على الوحدة. لأنَّ الاجتماع في أكثر من مكان في الوقت الواحد دليلٌ على الانفصال.

وهذا ما يوضِّحه البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) بقوله:

[إننا نحن جميعاً إذ نتناول من الرَّب الواحد بعينه، نصير جسداً واحداً، إذ يكون لنا في أنفسنا الرَّب الواحد][١١].

فذبيحة المسيح الواحدة والشَّاملة، هي التي تحقِّق الكنيسة كوحدة إيمان ومحبَّة. وهذا هو عين ما نقرأه في نصٍّ ليتورجي منذ أوائل القرن الثَّالث الميلادي، فنقرأ في كتاب التَّقليد الرسولي (١٢:٤) الذي دُوِّن قبل سنة ٢٣٥م ما يلي:

''نطلب إليك، أن تُرسل روحك القدُّوس على قرابين كنيستك المقدَّسة، **مانحاً الوحدة لجميع الذين يشتركون في قُدساتك**، ليمتلئوا بالرُّوح القُدُس، لتثبيت إيمانهم في الحق''. وهنا عمقُ الإدراك القلبي لمعنى شركتنا في القُدسات التي تمنحنا الوحدة بعضنا ببعض في المحبَّة، وتثبِّت إيماننا الواحد في الحق.

- **"الذَّبيحة" – "الصَّعيدة"** Sacrifice – θυσία أو **"القُربان"** (قربونو)''

مُصطلح ''**الذَّبيحة**''، أو ''**الصَّعيدة**'' هو من أقدم المصطلحات الطَّقسيَّة الخاصة بهذا السِّر المقدَّس في كنيسة مصر. وهو ما نجده عند العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م). كما أنَّ البابا تيموثاوس الأوَّل (٣٨٠- ٣٨٥م) الذي يدعوها ''**الذَّبيحة الرُّوحانيَّة**''. وهو أيضاً ما نجده في قُدَّاس القدِّيس سرابيون أُسقُف تمويس في القرن الرَّابع الميلادي.

وكما يعرف الأقباط هذا المصطلح، يعرفه أيضاً الأرمن والسِّريان، بل ويعرفه الشَّرق المسيحي كلُّه على وجه العموم، حيث يُستخدم مصطلح ''الذَّبيحة'' θυσία (ثيسيَّا)، أو المصطلح المقابل له وهو θυσία φρικτή (ثيسيَّا فريكتي) أي ''الذَّبيحة المخوفة'' على تقدمة الإفخارستيَّا[١٢].

ومنذ بدء المسيحيَّة، دُعيت الإفخارستيَّا، بأنها ''ذبيحة عقليَّة''، وأيضاً ''ذبيحة ناطقة''[١٣]. أي ''ذبيحة غير دمويَّة''، أي أنها ذبيحة روحيَّة حقيقيَّة في آن معاً. وقد حصرتُ ذات مرَّة صفات ذبيحة الإفخارستيَّا في قدَّاساتنا القبطيَّة، فوجدتها ٣٧ صفة.

ونخاطب المسيح له المجد في صلاة رفع بخور عشيَّة قائلين: ''أنت هو **ذبيحة المساء الحقيقيَّة**، الذي أصعدتَ ذاتك من أجل خطايانا على الصَّليب المكرَّم، كإرادة أبيك الصَّالح''.

والذَّبيحة هي ما يُذبح ليُقدَّم قُرباناً لله. فهي تقدمة عطيَّة إلى الله. وكلُّ الدِّيانات الأُخرى – بما فيها الدِّيانة اليهوديَّة – تقدِّم لله، أو للأَّهوت، أو حتى للصَّنم، أو ليهوه، ذبائح، بعيدة كلَّ البُعد عن طبيعة الله. سواء كانت ثوراً، أو خروفاً، أو حمامة، أو يمامة. أمَّا نحن، فنقدِّم لله ذبيحة إلهيَّة، هي ذبيحة ابنه الوحيد.

ولقد ارتبط تقديم الذَّبيحة منذ العصور الأولى بالعهد. مثل عهد الله مع نوح بعد الطُّوفان[١٤]، ومع إبراهيم[١٥]، ومع

١١- ضدَّ الأريوسيِّين ٣:٢٢

12- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F.L. Cross, London, 1958, p. 86-87.

13- Meyer, *Eucharistie, Geschichte, Theologie, Pastoral*, Regensburg 1989, p. 38.

١٤- تكوين ٨:٢٠-٩:١٧

١٥- تكوين ١٥

إسرائيل في سيناء[١٦]. وفي العهد الجديد صار العهد بين الله والإنسان، هو المسيح نفسه[١٧]، حينما قدَّم المسيح نفسه على الصَّليب، ذبيحةً عُظمى وحيدة، حوت فيها كلُّ ذبائح العهد القديم، فأبطلتها كلَّها، لأنها ذبيحة نهائية كاملة. للتَّكفير عن خطيئة الإنسان، ومنحه الخلاص، والشِّفاء، والمصالحة مع الله، والتَّطهير، والتَّقديس، ونوال البنوَّة الكاملة لله. ولا يمكن أن تقوم أيُّ ذبيحة أُخرى، بعد ذبيحة المسيح على الصَّليب.

وتُعدُّ رسالة العبرانيِّين هي المصدر الأوَّل الذي يشرح لنا بإلهام روحي فائق، كيف أصبحت ذبيحة المسيح له المجد التي قدَّمها بنفسه، ذبيحة واحدة. قُدِّمت مرَّة واحدة وإلى انقضاء الدُّهور، لتصير عوضاً عن الذَّبائح الكثيرة التي ظلَّت تُقدَّم في العهد الأوَّل، دون أن تستطيع أن تُطهِّر إلى التَّمام الذين كانوا يقدِّمونها، أو الذين قُدِّمت عنهم. فلم يكن لهذه الذَّبائح الكثيرة التي ظلَّت تُقدَّم مراراً وتكراراً، سوى القدرة على طهارة الجسد فحسب. ولكن ظلَّ الإنسان يحمل في نفسه ضمير خطايا أي يحمل في نفسه ضميراً مُثقَّلاً بالخطايا. وهكذا لم تقدر هذه الذَّبائح اليوميَّة أن تنزع الخطيئة. وإذ ظلَّ رئيس الكهنة في العهد الأوَّل محاطاً بالضَّعف والموت، لزم أن تتكرَّر الذَّبيحة مراراً كثيرة. وعلى قدر تعدُّد رؤساء الكهنة تعدَّدت الذَّبائح، ومن ثمَّ فقد لزم أن يتغيَّر النَّاموس وتبطُل الوصيَّة القديمة، ويتغيَّر الكهنوت اللاَّوي أو كهنوت هارون، الذي عن طريقه أخذ الشَّعب هذا النَّاموس العتيق.

لقد جاء المسيح كاهناً إلى الأبد على رُتبة ملكي صادق وليس على رُتبة هارون. قدوسٌ بلا شر ولا دنس، انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السَّموات. الذي ليس له اضطرار كلَّ يوم – مثل رؤساء الكهنة – أن يقدِّم ذبائح أولاً عن خطاياه نفسه، ثم عن خطايا الشَّعب. لأنه فعل هذا مرَّة واحدة إذ قدَّم نفسه[١٨]. وبدم نفسه دخل مرَّة واحدة إلى الأقداس أي إلى سماء السَّموات حيث العرش الإلهي، فوجد لنا فداءً أبدياً. فأبطل الخطيئة إلى الأبد بذبيحة نفسه[١٩] التي قدَّمها مرَّة واحدة. لأنه بعد أن قدَّم عن الخطايا ذبيحة واحدة جلس إلى الأبد عن يمين الله، فأكمل إلى الأبد المقدَّسين بقُربان واحد[٢٠].

وإن كانت صلاتنا في القُدَّاس الإلهي مشفوعة بذبيحة لها قيمة لانهائيَّة وغير محدودة، فأيُّ مقارنة إذاً بين الصَّلوات التي نُقدِّمها في القُدَّاس الإلهي، وتلك التي نقدِّمها في أيِّ صلاة أُخرى قيلت في العهد القديم؟ لأنَّ أيَّ ذبيحة أُخرى قدِّمت، كانت ذات قيمة محدودة، حتى إبراهيم الذي قدَّم ابنه، لأنَّ اسحق هو إنسان محدود. صحيحٌ أنه كان عزيزاً جداً عنده، وصحيحٌ أنَّ ما عمله إبراهيم، يُعتبر شيئاً يفوق قُدرة البشر، إذ مدَّ السِّكين ليذبح ابنه حُباً في الرَّب. ولكن ماذا يُحسب عمله هذا، أمام ما فعله الآب السَّماوي، عندما قدَّم لنا ابنه ذبيحاً عن خطايا العالم كلِّه؟

المسيح في ذبيحة الصَّليب، قدَّم حُبَّه على مستوى لانهائي. والقدِّيس بولس الرَّسول يقارن بين ذبائح العهد القديم ودم المسيح، فيقول: «فكم بالحري يكون دم المسيح، الذي بروح أزلي، قدَّم نفسه لله بلا عيب، يُطهِّر ضمائركم من أعمال ميتة، لتخدموا الله الحي» (عبرانيِّين ٩: ١٤). فما الذي تعنيه عبارة «بروح أزلي»؟

كلُّ أعمال المسيح التي صنعها في الجسد، لم يصنعها في الجسد فقط، ولكنَّه صنعها في الجسد المتَّحد بلاهوته. هذا هو جسد المسيح الذي قال عنه بولس الرَّسول، إنه يحل فيه كلُّ ملء اللاَّهوت[٢١]. لأننا نؤمن أنَّ لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين. فكلُّ أعماله التي قدَّمها في الجسد، لها قيمة إلهيَّة لانهائيَّة. فحُبُّ المسيح الذي قدَّمه على الصَّليب، هو حبٌّ متَّصلٌ بالحُب الأزلي الموجود بين الابن والآب قبل تأسيس العالم، وهو طاقة حُب لانهائيَّة، لا يمكن أن نتصوَّرها، ولا أن نتكلَّم عنها، كما قال بولس الرَّسول: «لا يسوغ لإنسان أن يتكلَّم بها» (٢كورنثوس ١٢: ٤).

١٦– خروج ٢٤:٤-٨
١٧– لوقا ٢٢:٢٠
١٨– انظر عبرانيِّين ص ٧
١٩– انظر: عبرانيِّين ٩:١٢، ٢٦
٢٠– انظر: عبرانيِّين ١٠:١٢، ١٤
٢١– انظر: رسالة كولوسي ٢:٩

فعبارة «بروح أزلي»، تعني أنَّ أفعال المسيح الزَّمنيَّة كانت متَّصلة بأفعاله الأزليَّة. وحُبُّه الزَّمني الذي قدَّمه على الصَّليب، كان متَّصلاً بحبِّه الأزلي الكائن بينه وبين الآب قبل تأسيس العالم. هذا الحُب، هو الذي أشار إليه بقوله: «لأنك أحببتني قبل تأسيس العالم» (يوحنَّا ١٧: ٢٤). طبعاً لأني أنا أيضاً أحببتك قبل تأسيس العالم.

هذا الحب اللاَّنهائي الموجود قبل التَّجسُّد، وقبل تأسيس العالم، والذي له قيمة لانهائيَّة تفوق كلَّ ما نستطيع أن نقوله، هو متَّصل تماماً بالحُب الزَّمني الذي قدَّمه المسيح على الصَّليب، وهو الذي أعطى ذبيحة الصَّليب أيضاً قيمتها اللاَّنهائيَّة.

• ''**الحَمَل** lamb'' أو ''**حَمَل الله**''.

وهو مصطلح تعرفه الطُّقوس القبطيَّة والبيزنطيَّة والآشوريَّة، لخبز الإفخارستيَّا. وهو ما نجده عند البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م)، حيث يدعوه ''الحَمَل السَّمائي''، فيقول:

[علينا أن نستعد لكي نقترب من الحَمَل السَّمائي ونؤهِّل لنلمس الطَّعام السَّمائي[٢٢]، فلنغسل أيدينا، ونطهِّر الجسم ونحفظ العقل من أيِّ شر حتى إذا كنَّا كلُّنا أطهاراً، نستحق أن نتناول من الكلمة].

ويرد هذا المصطلح في طقس القسمة في الكنيسة البيزنطيَّة، حين يقول الكاهن: ''حَمَل الله يُكسر ويوزَّع''. أو''حملُ الله الذي يُكسر ويظل غير مقسَّم''. أو ''حَمَل الله يُذبح''.

وقد دخل اصطلاح ''حَمَل الله'' كاصطلاح ليتورجي إلى قُدَّاس كنيسة روما في القرن السَّابع الميلادي، بواسطة البابا سرجيوس الأوَّل (٦٨٧-٧٠١م).

كان الخاطئ في العهد الأوَّل – وبحسب ما يشرح الأصحاح الثَّالث من سفر اللاَّويِّين – يأتي إلى الكاهن، ومعه ذبيحة ليُقرِّبها عن إثمه، فيضع الخاطئ يده على رأس الذَّبيحة، ويعترف بخطيئته، فتنتقل خطيئته إلى الذَّبيحة، فيذبحها الكاهن لدى باب خيمة الاجتماع، ويرش بنو هارون الدَّم على المذبح مستديراً، فتُغفر خطيئة الخاطئ. وهو نفس ما نمارسه في كنيسة العهد الجديد، لكن بذبيحة واحدة أبديَّة، هي حمل الله الذي يحمل خطيئة العالم كلِّه، وذلك حينما يختار الكاهن الحَمَل، ويضعه على راحة يده اليُسرى، ويمسحه بيده اليُمنى مستديراً، وهو يقول: ''أعط يارب أن تكون ذبيحتنا مقبولة أمامك عن خطاياي وجهالات شعبك، لأنها طاهرة كموهبة روحك القدُّوس بالمسيح يسوع ربِّنا ... إلخ''[٢٣]. وهذه الممارسة الطَّقسيَّة الأصيلة قد سقطت من الطَّقس مع الأسف، بسبب أنَّ الكاهن يمسح الحَمَل بيده بعد وضع الماء عليها، فظنَّ كثيرٌ من الكهنة أنه يُعمِّد القُربانة!!! وهو الخطأ الذي ظهر في القرن الرَّابع عشر الميلادي، وانتشر في الكنيسة حتى اليَوم.

• ''**الشَّركة المقدَّسة**'' – Holy Communion

لقد كان مجرَّد الشَّركة في تناول الخُبز تعني المصالحة والصَّداقة[٢٤]، وهي إحدى مظاهر المحبَّة الأخويَّة أو الشَّركة الأخويَّة في الكنيسة الأولى[٢٥].

ونعرفُ من سيرة البابا أثناسيوس الرَّسولي، أنَّ ''الشَّركة'' Communion هو الاسم القديم لهذا السِّر المقدَّس. والشَّركة تعني شركة المؤمنين مع بعضهم البعض، وتعني أيضاً شركتهم مع الله. ولا تتحقق هذه الشَّركة الثَّانية أي التي مع الله إذا لم تكن الأولى أي شركة المؤمنين مع بعضهم البعض كاملة غير منقوصة.

٢٢– كان التَّناول في القرون الأولى يسلَّم في اليد اليُمنى للمتناول، حيث يضع المتناول يده اليُسرى تحت اليُمنى، ثم يتناول الأسرار إلى فمه. وقد أُلغيت هذه العادة، واستُبدلت بما هو جاري الآن، منعاً من العوارض التي قد تصيب الجواهر المقدَّسة.

٢٣– الخولاجي المقدَّس، طبعة ١٩٠٢م، ص ٢٠٦، ٢٠٢

٢٤– تكوين ٥٤:٣١، ١ملوك ٨:١٣

٢٥– أعمال ١٦:٢

فعن أهميَّة شركة المؤمنين مع بعضهم البعض، يحضُرني هنا قول الأنبا أنطونيوس (٢٥١- ٣٥٦م) أب الرُّهبان الذي يقول:

[ليكن هذا الكلام - يا أحبائي- ظاهراً لكم: إنَّ كل المجتمعين (في حياة الشَّركة) إذا لم يكونوا قلباً واحداً، يجلبون على أنفسهم الحروب، ويصنعون لهم دينونة] (الرِّسالة ٣:١).

وأمَّا عن شركتنا نحن مع الله، فيقول القدِّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م):

[كما أنَّ عظمتَه تفوق الحدود، هكذا صلاحَه أيضاً لا يُنطَق به. وبسبب هذا الصَّلاح الفائق، جعل نفسه منظوراً، لكي يبث الحياة في الذين يرونه. ذلك لأنه يستحيل أن يحيا أحد بدون الحياة، وجوهر الحياة كائن في الشَّركة مع الله، والشَّركة مع الله هي في رؤية الله وتذوُّق صلاحه] (ضدَّ الهرطقات ٤:٢٠:٥).

هذه هي الشَّركة التي تسوِّغ لنا الاشتراك في جسد الرَّب ودمه الأقدسَين، وهذه الشَّركة تكون بحلول الرُّوح القُدُس علينا وعلى السِّر المقدَّس في آن معاً. فهكذا يقول الكاهن: ''ليحل روحُك القدُّوس علينا وعلى هذه القرابين ...''.

فالرُّوح القُدُس يحلُّ علينا، لكي يُقدِّسنا لنصير أهلاً للتَّناول من الأسرار الإلهيَّة، فنتَّحد بالرَّب اتحاد الكرمة بالأغصان. فكلُّ من يتناول من جسد الرَّب ودمه الكريمَين، يُربَط بهما عبر الزَّمن والحياة اليوميَّة برباط الرُّوح القُدُس الذي يهبنا قوَّة القيامة، ويوحِّدنا بجسد المسيح، لنحيا دوماً فيه ومعه، معلناً الرُّوح القُدُس حقيقة ملكوت الله داخلنا.

ومن أجل ذلك، ففي نهاية القُدَّاس الإلهي، يصرخ الكاهن قائلاً: ''القُدْسات للقدِّيسين''. يعني أنَّ الأشياء التي لله هي للأشخاص الذين لله. وهذا النِّداء يقوله الكاهن بعد صلاة التَّحليل الأخير الذي قاله الكاهن لتوِّه سراً، فصار المؤمنون قدِّيسين.

يقول القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م):

[إنَّ ''القُدسات للقدِّيسين'' تُقال، لأنَّ مواد الإفخارستيَّا الموضوعة أمامنا، قبلت الرُّوح القُدُس عليها. وأنتم قدِّيسون أيضاً، حينما يسكن فيكم الرُّوح القُدُس. لذلك فإنَّ القُدسات تليق بالقدِّيسين][٢٦].

ويقول أيضاً في عظته السَّابعة عشرة في شرح رسالة العبرانيِّين:

[الكنيسة تنادي بذلك، حتى إذا كان هناك إنسانٌ غير مقدَّس، فلا يقترب ... ولكن لا تقول الكنيسة علانية من كان بلا خطيئة فليتقدَّم، بل من كان فيه الرُّوح القُدُس وهو متمسِّك بالأعمال الصَّالحة، فليتقدَّم].

إنَّ الشَّعب حين يجيب على الكاهن: ''واحدٌ هو الآب القدُّوس، واحدٌ هو الابن القدُّوس، واحدٌ هو الرُّوح القُدُس''، فهو يُعلن أنه بصدد القداسة، لا يوجد إلاَّ قُدُّوسٌ واحدٌ هو الآب والابن والرُّوح القُدُس. وفي ليتورجيَّتا أورشليم والمراسيم الرسوليَّة، يجيب الشَّعب: ''واحدٌ قُدُّوسٌ هو ربُّنا يسوع المسيح''. أمَّا في الطَّقس البيزنطي، فيكون مرد الشَّعب: ''قُدُّوسٌ واحدٌ، ربٌّ واحدٌ، يسوع المسيح، لمجد الله الآب. آمين''. وهذا يعني في عُرف الكنيسة، أنَّ واحداً فقط هو منبع ومصدر كلِّ قداسة وتقديس، الذي هو ربُّنا يسوع المسيح.

وفي الطَّقس القديم وحتى إلى ما قبل القرن الخامس عشر الميلادي، كان الشَّعب يجيب على نداء الكاهن ''القدسات للقديسين'' بقوله: **اذكرنا يارب إذا جئتَ في ملكوتك**. قُدُّوسٌ الآب، قُدُّوسٌ الابن، قُدُّوسٌ الرُّوح القُدُس، الثَّالوث المقدَّس''[٢٧].

وعن كون الشَّعب قد صاروا قديسين من قبل حلول الرُّوح القُدُس عليهم، نقرأ صلاة بديعة في خولاجي القدِّيس سرابيون، توضِّح لنا هذا المعنى، تقول:

26- Cyril of Jerus., *Catech*. 23.

٢٧- كتاب سرّ الثَّالوث في خدمة الكهنوت، مرجع سابق، ص ٢٨

''يا إله الحق[٢٨]، محبَّ البشر. **لتبق شركة الجسد والدَّم**[٢٩] **مع هذا الشَّعب**. لتكن أجسادهم أجساداً حيَّة، ونفوسهم نفوساً نقيَّة. **امنح هذه البَرَكَة لحفظ الشَّركة، وليقين الشُّكر، وفرح الكُل** (بشركتهم) **معاً**. واجعلهم مختارين بابنك الوحيد يسوع المسيح في الرُّوح القُدُس، الآن وإلى كلِّ آباد الدُّهور. آمين'' (خولاجي سرابيون ١٨: ١).

هذه الشَّركة المقدَّسة تعني الحضور الشَّعبي من الرِّجال والنِّساء والفتيان والفتيات والشُّبَّان والشَّابَّات والأطفال والشُّيوخ يلتفُّون كلُّهم حول المسيح المخلِّص الحبيب، وفي معيَّته وضيافته. فهو المضيِّف وصاحب البيت. وفي ذات الوقت، هو طعام وشراب المدعوِّين، ونور وأصل حياتهم. فمنه وبه وله كلُّ الأشياء، وهي كائنة بإرادته ومسرَّة صلاحه.

- **''السَّرائر''** أو **''الأسرار''**

هذا المصطلح يُطلق على هذا السِّر في الكنيسة القبطيَّة، وقد ورد في قوانين البابا تيموثاوس الأوَّل (٣٨١-٣٨٨م) البطريرك الـ ٢٣ من بطاركة كنيسة الإسكندريَّة. وأيضاً في قوانين البابا أثناسيوس الثَّاني (٤٨٩-٤٩٦م) الـ ٢٨ بطريرك الإسكندريَّة في نهاية القرن الخامس الميلادي[٣٠]، حيث نقرأ من القانون (٧٨: ١، ٢): ''من أجل **السَّرائر المقدَّسة**، جسد المسيح ودمه، فلا تفضلوا منه شيئاً من المساء إلى باكر، ولكن كلَّما أرادوا أن يصنعوه، فها المذبح المقدَّس مستعد. ومادامت **السَّرائر المقدَّسة** على المذبح قبل أن تُرفع، لا تسكت القراءة من قدَّامه، بل يرتِّلون بكلام الله، أو يقولون في المزامير. لأنه مكتوب: «إنني رتَّبت حراساً على أسوار أُورشليم، اللَّيل والنَّهار، هؤلاء الذين لا يسكتون كلَّ حين من ذكر الرَّب»[٣١]. ولأنه جسده ودمه، فلا يفتُرون من تسبحته، إلى الوقت الذي ينظَّف فيه الموضع (أي المذبح)''.

وأمَّا عن مصطلح **''الأسرار''**، فيقول القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م):

[إنَّ **الأسرار** الموضوعة أمامنا ليست من عمل إنسان. **فالذي أقامها في ذلك الزَّمان، في ذلك العشاء،** هو نفسه الذي يقيمها الآن. وأمَّا نحن فلسنا سوى خُدَّام للطَّقس، ولكنَّه هو نفسه الذي يقدِّس القرابين وينقلها ... فنحن الآن في العِلِّيَّة حيث كانوا مجتمعين في ذلك الزمان][٣٢].

ويقول أيضاً:

[ثمَّة حالات لا يتميَّز فيها الكاهن بشيء عن الخاضعين له، وكذا الحال عند تناول **الأسرار المقدَّسة الرَّهيبة**. فنحن جميعاً مستحقُّون بالقدر نفسه. لقد تغيَّرت الأحوال عمَّا كانت عليه في العهد القديم، عندما كان للكهنة طعام، وللشَّعب آخر. وعندما لم يكن يُسمح للشَّعب بمشاطرة الكهنة طعامهم. اليَوم، الحال مختلف. اليَوم، الجسد ذاته والكأس ذاتها، ممنوحان للجميع ... اليَوم، كلُّنا نصافح بعضُنا بعضاً ...][٣٣].

ونقرأ في القانون (٩٧) من القوانين الكنسيَّة المصريَّة المنسوبة للقدِّيس باسيليوس الكبير، والتي تعود إلى القرن السَّادس الميلادي: ''إذا ابتدأوا أن يصنعوا **الأسرار**، فلا يكن ذلك بقلق. وليأخذوا بترتيل المزامير إلى أن يجتمع الشَّعب''.

ونقرأ من الخطاب الأخير الذي ألقاه القدِّيس مقاريوس الكبير على أولاده قبل نياحته، حيث يقول لهم:

[يا أولادي؛ أنا أعطي وصيَّتي لكلِّ واحد منكم، أن لا يدنو من **الأسرار المقدَّسة**، إلاَّ وهو مستبرئ نفسه (يحاكمها فيجدها بريئة)، أمَّا إذا كان بينه وبين أخيه وَجْد (حقد)، فليمض إليه، ويُصالح قلبه، ويضرب له ميطانية (توبة

٢٨- مزمور ٦:٣٠
٢٩- ١كورنثوس ٦:١٠
٣٠- انظر القوانين ٦:١٠ ؛ ٣٦، ٤١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٨
٣١- إشعياء ٦:٦٢

32- *PG* 58, 744, 28-39.

عظة ٥:٨٢ على إنجيل متى.
٣٣- العظة رقم ١٨ إلى الكورنثيين (*PG* 61, 527)

واستغفار). وبعد ذلك يتناول من الأسرار الطَّاهرة، عالمين أنَّ محبَّة الإخوة، ومصالحة قلوبهم بعضهم نحو بعض، هي النِّعمة كلّ النِّعمة، وهي العبادة، وهي الملكوت ... فاحترسوا يا أولادي وتحفَّظوا، حتى لا يتقدَّم أحدٌ إلى **الأسرار المقدَّسة**، وهو في شكٍّ بسبب من الأسباب، لئلا يهلك وهو لا يدري](٣٤).

ويُدعى هذا السِّر المقدَّس أيضاً باسم ''**سرُّ جميع الأسرار**''. ففي نصِّ صلاة حجاب للآب في القُدَّاس الكيرلُّسي، لأبينا القدِّيس يوحنَّا المثلث الطُّوبى(٣٥) يقول الكاهن: ''يا خالق البريَّة كلِّها ... أعطني ياربُّ روحَك القدُّوس، النَّار غير الهيوليَّة، التي لا يُفكَّر فيها ... وكما يليق بالكهنة، يجعلني فوق كلِّ فكر ميِّت، وليجعل فيَّ الكلمات المطهِّرة، لكي أُكمِّل هذا القُربان الموضوع، الذي هو **سرُّ جميع الأسرار**، بصُحبة وشركة مسيحك، هذا الذي يليق بك معه، المجد مع الرُّوح القُدُس المحيي المساوي لك ...''.

فهذا السِّر يُدعى سرُّ جميع الأسرار، لأنَّه السِّر التي تختتم به جميع أسرار الكنيسة بدون استثناء. وأيضاً لأنَّ هذا السِّر هو نفسه سرُّ المسيح والكنيسة. أي سرُّ حضور المسيح الدَّائم في الكنيسة، ومن ثمَّ حضور الآب والابن والرُّوح القُدُس. لأنه حيث المسيح، فهناك الآب والرُّوح القُدُس.

هو سرُّ الأسرار لأنه سرُّ سكنى المسيح فينا، واتحادنا به. هو سرُّ الأسرار لأنه سرُّ ارتقائنا إلى السَّماء، والمذبح المقدَّس هو رمزُ هذا الارتقاء، ووسيلة تحقيقه. فالمسيح صعد إلى سماء الأسرار، وسماء الأسرار هي الكنيسة، على حدِّ قول القدِّيس يعقوب السُّروجي. ولأنه أيضاً هو سرُّ وحدة الكنيسة وبقائها، وعلَّة إيمانها وحياتها، وخبرتها.

إنَّ حياتنا في المسيح، لا تتحقَّق بكلامنا عن سرِّ جميع الأسرار، بل من داخله.

• ''**السِّيناكسيس**'' σύναξις

كلمة συναγάγη (سيناجاجي) في اللُّغة اليونانيَّة تعني ''يجمع''، ومنها كلمة σύναξις (سيناكسيس)، وهو مصطلح يوناني يعني: ''اجتماع''، بمعنى أيُّ اجتماع لعبادة أو صلاة جمهوريَّة، بما في ذلك الاجتماع من أجل إقامة الإفخارستيَّا liturgical synaxis ، وهو ما يعرفه الشَّرق المسيحي.

ونجد هذا المصطلح ⲥⲩⲛⲁⲝ (سيناكس) حتى اليَوم في قطمارُس الكنيسة القبطيَّة في بداية قراءات كلِّ قُدَّاس. أمَّا في الغرب فقد استُخدمت الكلمة منذ وقت مبكِّر لتعبِّر عن اجتماع لغرض دون إقامة الإفخارستيَّا aliturgical synaxis متضمِّناً تلاوة مزامير وقراءة فصول كتابيَّة وصلوات، ولكن بعيداً عن إقامة خدمة القُدَّاس.

ولذلك ففي الشَّرق المسيحي، هناك نوعان أساسيَّان من ''السِّيناكسيس'' أو ''السِّيناكس'' هما: ''السِّيناكس الكبير – ϯⲛⲓϣϯ ⲛ̀ⲥⲩⲛⲁⲝ''، ونعني به خدمة إقامة الإفخارستيَّا ويحويها كتاب الخولاجي المقدَّس. و''السِّيناكس الصَّغير – ϯⲕⲟⲩϫⲓ ⲛ̀ⲥⲩⲛⲁⲝ'' ونعني به صلوات رفع البَخور والتَّسبحة، وصلوات المزامير في سواعي اليَوم، كما في الأديرة.

كما أنَّ يومي الأربعاء والجُمعة من كلِّ أسبوع، كان لهما وضعٌ خاص في الكنيسة منذ القرون الأولى، سواء باعتبارهما يومي السِّيناكس الصَّغير في كنيسة الإسكندريَّة وروما، أو السِّيناكس الكبير في كنائس أورشليم وسوريا وشمال إفريقيا.

وعندما يتكلَّم القدِّيس أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) عن هذا السِّر المقدَّس، فهو لا يستخدم الكلمات المألوفة عندنا

٣٤- الأب متى المسكين، الرَّهبنة القبطيَّة، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص ١١٦، ١١٧

٣٥- وهو يوحنَّا أُسقُف بُصرى Bostra ومطرانيَّة العرب، وبُصرى هي عاصمة حوران جنوب غرب سوريا. وقد عاش في منتصف القرن السَّادس الميلادي، وكان معاصراً للقدِّيس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥-٥٣٨م). وله قُدَّاس حُفظت أجزاء منه في مخطوط خولاجي الدَّير الأبيض بسوهاج، والذي تمَّ اكتشافه في القرن العشرين، بواسطة الأب عمانوئيل لان Emmanuel Lanne (١٩٢٣-٢٠١٠م).

مثل ''الإفخارستيَّا''، أو ''الاجتماع الإفخارستي''، ولا حتى تعبير ''كسر الخُبز''، ولا ''القُدَّاس''، بل كان دائماً يستعمل كلمة ''السِّيناكسيس''. وكذلك كان أنبا باخوميوس (٢٩٢-٣٤٨م) أيضاً وكلُّ تلاميذه. وكلُّ الكتابات الصَّادرة عن الأديرة الباخوميَّة أيضاً، كانوا يستعملون هذه الكلمة.

فهذا السِّر المقدَّس، هو في الأساس سرُّ ''جمع المتفرِّقين إلى واحد''.

وعند القدِّيس أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) أيضاً، فإن السِّيناكسيس الكبير هو مأكلٌ فائقٌ سماوي، وطعامٌ روحاني[٣٦]، وطعام سماوي[٣٧]، والوليمة الإلهيَّة غير الفاسدة[٣٨]، وطعام الحياة[٣٩]، والخُبز الإلهي[٤٠]، والعشاء العظيم السَّماوي الذي يفوق العالم[٤١].

- **''البروسفورا''** προσφορά

هو من أقدم المسمَّيات لهذا السِّر في الكنيسة القبطيَّة، إذ نجده عند العلاَّمة أوريجانوس المصري (١٨٥- ٢٥٤م) حيث يدعو هذا السِّر المقدَّس باسم ''التَّقدمة''. وانتقل هذا المصطلح بنصِّه ونُطقه إلى اللُّغة القبطيَّة **ⲡⲣⲟⲥⲫⲟⲣⲁ** ويعني **''تقدمة''**. ونصُّ قُدَّاس القدِّيس سرابيون أُسقُف تمويس في القرن الرَّابع عنوانه الرَّئيسي هو Εὐχή προσφορᾶς أي: ''صلاة البروسفورا'' أو ''صلاة التَّقدمة''. وهي نفس الكلمة ''بروسفورا'' التي وردت في قوانين البابا أثناسيوس الثَّاني بطريرك الإسكندريَّة في نهاية القرن الخامس. ولكن المترجم لهذه القوانين إلى اللُّغة العربيَّة في القرن الحادي عشر الميلادي، ترجم كلمة ''بروسفورا'' القبطيَّة إلى كلمة **''قُدَّاس''**[٤٢]، وهو ما استطعنا أن نعرفه من النَّص القبطي للقانون (٤٩)، والقانون (٩٣)، وهما من بين القوانين القليلة ضمن هذه القوانين التي لازالت محفوظة لدينا بنصِّها القبطي القديم[٤٣].

- **''الأنافورا''** Anaphora — ἡ ἀναφορά

وهي كلمة يونانيَّة تعني في المصطلح اللِّيتورجي ''تقديم القُربان أو رفعه – offering''. لأنَّ الكلمة تتركَّب من مقطعين: ἀνα (آنا)، وتعني: ''إلى فوق''. و φορά (فورا)، وتعني: ''يرفع أو يُقدِّم أو يلبس''. وعلى ذلك، فالأنافورا هنا تعني رفع الصَّعيدة أو القُربان إلى فوق. وقد أُطلقت الكلمة على الجزء الرَّئيسي من صلاة الإفخارستيَّا، وهو الجزء الذي يحوي التَّقديس والتِّذكار والتَّناول. لذلك فالكلمة تغطِّي معظم صلوات اللِّيتورجيَّا، لذلك أُطلقت عموماً على تقديم ذبيحة الإفخارستيَّا بكاملها.

وإنه من العجيب حقاً، أنَّ تعبير ''أنافورا''، ليس هو التَّعبير المشهور في الكنيسة القبطيَّة، إذ حلَّ محلَّه تعبير: ''القُدَّاس''. برغم أنَّ العنوان القبطي لأيِّ قُدَّاس قبطي في مخطوطاتنا القبطيَّة، وفي الخولاجي المطبوع أيضاً، يحمل عنوان: ''أنافورا''.

فعنوان القُدَّاس الباسيلي القبطي هو: ⳿Ⲁⲛⲁⲫⲟⲣⲁ ⳿ⲛⲧⲉ ⲡⲓ⳿ⲁⲅⲓⲟⲥ Ⲃⲁⲥⲓⲗⲓⲟⲥ ⳿ⲉ ⳿ⲫⲓⲱⲧ
أي: ''**أنافورا** القدِّيس باسيليوس للآب''[٤٤].

٣٦- الرِّسالة إلى سرابيون ١٩:٤
٣٧- الرِّسالة الفصحيَّة ٥:٥
٣٨- الرِّسالة الفصحيَّة ٢٨
٣٩- الرِّسالة الفصحيَّة ١:٥
٤٠- الرِّسالة الفصحيَّة ١:٧
٤١- الرِّسالة الفصحيَّة ٤٠
٤٢- كما في القوانين ٤:١٤، ١:٢٥، ٤٠، ١:٤٩، ٢:٩٣
وهذا يوضح لنا أن كلمة ''قُدَّاس'' قد صارت معروفة في الكنيسة القبطيَّة منذ هذا الوقت المبكِّر من تاريخها، أي منذ القرن الحادي عشر الميلادي على أقل تقدير.
43- Riedel, W. and Crum, W., *The Canons of Athanasius Patriarch of Alexandria*, London, 1904, p. 92, 112.
٤٤- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٣١٢

وعنوان القُدَّاس الغريغوري القبطي هو: **⳩ Ⲁ̀ⲛⲁⲫⲟⲣⲁ ̀ⲛⲧⲉ ⲡⲓ̀ⲁⲅⲓⲟⲥ Ⲅ̀ⲣⲏⲅⲟⲣⲓⲟⲥ ⲡⲓⲑⲉⲟⲗⲟⲅⲟⲥ**
أي: ''**أنافورا** القدِّيس غريغوريوس النَّاطق بالإلهيَّات''(٤٥).

وعنوان القُدَّاس المرقسي هو:
Ⲧ̀ⲁⲣⲭⲏ ̀ⲛϯ̀ⲁⲛⲁⲫⲟⲣⲁ ̀ⲛⲧⲉ ⲡⲉⲛⲓⲱⲧ ̀ⲉⲑⲟⲩⲁⲃ Ⲙⲁⲣⲕⲟⲥ ⲡⲓ̀ⲁⲡⲟⲥⲧⲟⲗⲟⲥ ⲑⲏ̀ⲉⲧⲁϥⲉⲣⲃⲉⲃⲉⲟⲛ ̀ⲙⲙⲟⲥ ̀ⲛϫⲉ ⲡⲓ̀ⲧⲣⲓⲥⲙⲁⲕⲁⲣⲓⲟⲥ ⲡⲓ̀ⲁⲅⲓⲟⲥ Ⲕⲩⲣⲓⲗⲗⲟⲥ ⲡⲓⲁⲣⲭⲏ̀ⲉⲡⲓⲥⲕⲟⲡⲟⲥ.
أي: ''بدء **أنافورا** أبينا القدِّيس مرقس الرَّسول، الذي رتَّبه وجمعه المثلَّث الطُّوبى، القدِّيس كيرلُّس، رئيس الأساقفة''(٤٦).

- **"القُدَّاس"**

وهو اللَّفظ الأكثر تداولاً بين الأقباط. وكلمة ''قُدَّاس'' عند الأقباط، يقابلها ''قُدَّاسة – قِدَّاسة – قدَّاشاه'' عند الأحباش والآشوريِّين (النَّساطرة)، وهو ما يقابل كلمة ''أنافورا'' عند السِّريان والموارنة. ويُسمَّى القُدَّاس في اللاَّتينيَّة Missa ومن هذه الكلمة اللاَّتينيَّة جاءت كلمة Mass في الإنجليزيَّة.

- **"ليتورجيَّا"** liturgy – λειτουργία

في الكنيسة البيزنطيَّة، يُسمَّى السِّر ''**اللِّيتورجيَّا الإلهيَّة**''. وتتكوَّن كلمة ''ليتورجيَّا'' من مقطعين هما: λέως (ليؤس) أي ''شعب''، و ἔργον (إرغون) أي ''عمل''. فيكون معنى الكلمة ''عمل شعبي''. وهكذا استُخدمت الكلمة، لتُفيد أيَّ عمل شعبي من أيِّ نوع، وليس الدِّيني فقط. ومنذ زمن التَّرجمة السَّبعينيَّة للعهد القديم في القرن الثَّالث قبل الميلاد، استُخدمت الكلمة خصيصاً لتحمل معنى ''الخدمات التي كانت تُقدَّم في الهيكل اليهودي''. ويستخدم كتاب العهد الجديد كلمة ''ليتورجيَّا'' مرَّتين، كمرادف للعبادة المسيحيَّة(٤٧). وفي المرَّات الأُخرى التي وردت فيها الكلمة، صارت تعني ''خدمة''، سواءٌ كانت خدمة روحيَّة، أم جسديَّة.

وحينما يتكلَّم القدِّيس بولس الرَّسول عن «خدَّام الله»(٤٨)، أو عن نفسه «كخادم ليسوع المسيح»(٤٩)، فهو يستخدم كلمة λειτουργός (ليتورجوس) ليشير بها تحديداً إلى الخدمة الكهنوتيَّة(٥٠).

ولقد انحصر استخدام الكلمة في كنيسة العهد الجديد، لتشير إلى صلاة الإفخارستيَّا، باعتبارها العمل الشَّعبي الأساسي في الكنيسة. فصارت الكلمة بديلاً لكلمة ''أنافورا''، التي يستخدمها كلٌّ من كنيسة أورشليم، وكنيسة أنطاكية السِّريانيَّة، للإشارة إلى ''القُدَّاس''. كما يمكن أن تُستخدم كلمة ''ليتورجيَّا'' أيضاً، لتشير إلى الصَّلوات الطَّقسيَّة في الكنيسة بكافة أنواعها، مثل صلاة السَّواعي باعتبارها خدمة شعبيَّة(٥١).

إنَّ اللِّيتورجيَّا هي ''اجتماع **الجميع** في مكان **واحد** برئاسة **الأُسقُف**، أو **من ينيبه**''. هذه هي الكنيسة، وهذا هو مضمون الخدمة اللِّيتورجيَّة وقانونيَّتها.

٤٥– كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٤٥١
وقد ترجم الخولاجي المذكور هذا العنوان القبطي إلى: ''**قُدَّاس** القدِّيس ... إلخ''.
٤٦– كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٥٥٣ .
وقد ترجم الخولاجي المذكور هذا العنوان القبطي إلى: ''**قُدَّاس** القدِّيس ... إلخ''.
ولكن الخولاجي المذكور ترجم القبطيَّة إلى ''بدء **قُدَّاس** ... إلخ''.
٤٧– انظر: لوقا ١:٢٣، أعمال ٢:١٣
٤٨– رومية ٦:١٣
٤٩– رومية ١٦:١٥
٥٠– انظر أيضاً: فيلبي ٢٥:٢، عبرانيِّين ٢:٨
٥١– انظر للمؤلِّف، معجم المصطلحات الكنسيَّة، الجزء الثَّالث.